رومانيا العربية

الحياة ٢٨٠/١٢/٨٩

غسان سلامة *

■ عندما قطع رولان دوما مداولات مؤتمر الحوار العربي - الاوروبي في قاعة المؤتمرات على جادة كليبر الباريسية، ليعلن سقوط الطاغية الروماني نيقولاي تشاوشيسكو، لم يكن يعلم انه يفضح بنفسه هشاشة الحوار الذي دعا اليه رئيسه. فاللحظة كانت فعلاً تاريخية، ظهيرة يوم الجمعة، بينما الحوار بين العرب والاوروبيين يضيع في متاهات الكلام غير المجدي، والعواطف غير المثمرة. كان التاريخ يصنع في شوارع بوخارست، وكان الوزراء العرب والاوروبيون يئنون من الضجر في انتظار الغداء.

فجأة قال رولان دوما: سقط تشاوشيسكو. وهنا حصل ما كان ينبغي تجنبه لو كان للحوار المذكور معنى: صفق الاوروبيون، كل الاوروبيين، وبقي العرب ساكنين، في مزيج من الحرج ومن قلة الاهتمام. وقد امضيت ساعات عديدة من الحزن بعدما جاءني ديبلوماسي اوروبي بهذه الصورة المزعجة. لكن صديقاً عربياً كان حاضراً في المؤتمر بدا لي اكثر دقة في وصفه للحادث حين قال: انفجر الاوروبيون بالتصفيق جميعاً. اما العرب، فقد صفق منهم من كان في الصفوف الخلفية من صغار الديبلوماسيين حتى اكتشفوا ان وزراءهم لا يصفقون، فتوقفوا فوراً عن التعبير عن غبطتهم العفوية، خوفاً من نظرات وزرائهم القاسية ومن العتاب الآتي لا محالة بعدها، عندما يحين موعد العودة الى الوطن. وجاءني شاهد عيان ثالث يؤكد هذه الصورة، ويضيف ان واحداً او اثنين من كبار الديبلوماسيين العرب صفق ايضاً، تهليلاً بسقوط الطاغية... او تضامناً مع خواجات اوروبا، والله اعلم.

وقد يأتيك قائل: لمَ العجب، فما لنا ولرومانيا. طبيعي ان يفرح ابناء اوروبا الغربية، وطبيعي ايضاً ان نعتبر انفسنا نحن معشر العرب، غير معنيين بالحكاية كلها. فابناء اوروبا معنيون بروماني، لان رومانيا بلد اوروبي. وابناء اوروبا معنيون بروماني لأنهم من دعاة الرأسمالية وها هم يفرحون لسقوط مدماك آخر من مدامیك المنظومة الاشتراكية. هم سعيدون ولكن الامر لا يعنينا لا من قريب ولا من بعيد: فلا الرومان عرب، ولا نحن طرف في صراع الشرق والغرب. بل هم يضيفون انه قد تكون لنا مصلحة في صمود اوروبا الشرقية في مواجهة الغرب، المنتصر ايديولوجياً واقتصادياً، لئلا تطغى الدول الغربية عليهم وعلينا معاً.

جميل هذا الكلام لو كان صحيحاً. ولكن الامور مختلفة عن هذا التصوير السطحي المتسرع. ذلك لاننا معنيون بما يحصل في رومانيا مثل الاوروبيين وأكثر، ولأنه علينا بالتالي ان نظهر كامل اليقظة لما يحصل في ذلك البلد، لنتعلم من امثولاته قبل فوات الأوان.

فالناظر الى أي خريطة سيرى ان رومانيا وعموم البلقان تكاد تكون اقرب مسافة الى المنطقة العربية منها الى اوروبا، وان بوخارست اقرب الى اسطنبول وبغداد ودمشق وبيروت منها الى اوسلو ولندن ودبلن.

والمتمعن في احوال رومانيا سيرى اوجه شبه عديدة بين ما مرت به هذه البلاد السيئة الحظ وبين غير بلد عربي. فرومانيا كانت دولة نفطية كبيرة في النصف الاول من القرن ولم تحسن تماماً اعادة توظيف عائداتها النفطية. ورومانيا كانت بلداً تتبع نظام الحزب الواحد، بينما الناس يريدون تعددية في الرأي السياسي. وتحت ستار الحزب، كانت تحكم رومانيا مجموعة عائلية قوامها الرئيس، وزوجته، واخوته، وابناؤه، واولاد عمه، ناهيك عن ابناء قريته. وكانت هذه المجموعة العائلية تتحكم بالبلاد وبالعباد، ولا من رقيب ولا من حسيب. ورومانيا كانت بلداً تعيش على اجهزة الامن، وتحت سيطرتها المطلقة على حساب المؤسسات الشرعية، بل على حساب الجيش نفسه. ورومانيا كانت بلداً عشش فيها الخوف، ونمت فيها الرهبة من السجن والاعتقال والنفي والقتل الفردي والجماعي. ورومانيا كانت بلداً استطاع حكامها طوال ربع قرن اللعب بالمفردات القومية المتطرفة، والماركسية الستالينية، لفرض ديكتاتورية ارهابية كمثل ديكتاتوريات العالم الثالث من هايتي الى الفيليبين، ومن وسط افريقيا الى اواسط اميركا.

بكلام آخر، كانت رومانيا جغرافياً جزءاً من اوروبا وكان نظامها جزءاً من انظمة العالم الثالث المتخلف في آسيا وافريقيا واميركا الجنوبية. كانت بوخارست مدينة اوروبية، وكان تشاوشيسكو زعيماً يشبه عيدي امين وبوكاسا وفرديناند ماركوس. لذلك نحن معنيون به، ومعنيون بما حصل له. لأن رومانيا، بين دول اوروبا الشرقية جميعها كانت اقرب الامثلة لما نشهده من الانظمة السياسية في العالم الثالث، بما فيه العالم العربي: تسلط وقهر ونهب. وبذلك اختلفت رومانيا عن بولونيا (حيث العمل النقابي المستقل النشط والمسيّس) وعن هنغاريا (حيث الانفتاح السياسي والاقتصادي التدريجي) وعن تشيكوسلوفاكيا (حيث دور المثقفين المميز) وحتى عن بلغاريا (حيث التأثر المباشر بما حصل في الاتحاد السوفياتي). كانت رومانيا بعيدة عن كل هذه الامثلة وقريبة من غير حالة عربية او عالم ثالثية.

ثم ان تشاوشيسكو كان يهتم بنا وننهته به. فقد تعددت زياراته لمنطقتنا، وتعددت زيارات قادتنا لبوخارست. والأمل ان تكون المعلومات عن تدخل عربي مباشر لحماية نظامه معلومات ملفقة، سربتها اجهزة اعلامية معادية للعرب. ثم انه كان نشطاً في مجال الصراع العربي - الاسرائيلي، نظراً لعدم انقطاع علاقاته باسرائيل وبزعماء ليكود تحديداً. وربما آن الاوان لتقييم هذا الدور، ولكي يتساءل العرب الذين اوكلوا اليه هذا الدور عن نتائج توكيلهم.

لكن الأمر الأساسي ليس بحجم رومانيا ذات العشرين مليون، ولا بحجم اسكافي صغير صعد وصعد وصعد ليصبح رئيساً لبلاده. وليحمله جنون العظمة على دروب التدمير المنظم. الأمر الأساسي أكبر من تشاوشيسكو، ومما حصل في رومانيا، ومن المستقبل الصعب الذي ستمر به تلك البلاد لاعادة بناء مؤسسات ولاعادة الكرامة الى انسانها. الأمر الأساسي اعظم لأنه يمسّ العالم بأسره. انه موجة واسعة تضرب الانظمة السياسية المتسلطة من جذورها. بدأت هذه الموجة منذ عقد ونصف في جنوب اوروبا مع سقوط ديكتاتوريات فرانكو في اسبانيا وسالازار في البرتغال وبابادوبولوس في اليونان. وانتقلت الموجة بعدها الى اميركا اللاتينية حيث سقط الحكم العسكري في الارجنتين والبرازيل وفي دول لاتينية اخرى اقل اهمية. ثم انتقلت الموجة الى الشرق الآسيوي حيث هوت بماركوس في الفيليبين وبالعسكر في كوريا الجنوبية. وها هي اليوم، في أقل من موسم خريفي واحد، تقضي على مجمل انظمة اوروبا الشرقية والبلقان.

ان روحاً تهب على العالم بأسره، هي روح الحرية، ايا تكن الشعارات التي تلجأ اليها الانظمة التسلطية لتبرير تسلطها. والاعتقاد ان هذه الموجة ستتجنب المنطقة العربية بسحر ساحر، اعتقاد بدائي وسطحي. فالكرة قد اصبحت فعلاً «قرية واحدة»، تتأثر بما يجري فيها ويؤثر. شئنا ثمن غيرنا من الشعوب والقوميات.

ثم ان خريطة جديدة بدأت تظهر على وجه الارض حيث تتراجع حدة صراع الشرق والغرب، ويتضاءل حجم القوى العظمى، العاجزة على الاستمرار بالتحكم في مناطق نفوذها. ونحن نشهد اليوم فعلاً نوعاً من التعاون التدريجي بين الشرق والغرب لرأب الصدع، وتحديد الخسائر. وما جرى في بوخارست اعظم مرات من لقاء تافه على شواطئ مالطا.

ولا ريب ان جنوب الكرة، ونحن منه، مهدد بسبب كل ذلك بالتهميش التدريجي. لذا، فالحنين الى الحرب الباردة لم يعد يفع، وانتظار الترياق من دول الشمال لن يأتي بنتيجة. اما دخول العرب، بدولهم وشعوبهم في اللعبة الجديدة، فيتطلب منهم تجددا عاجلاً في النظرة الى الشرق والغرب والى التحولات المتسارعة في اوروبا... ويتطلب منهم بادئ ذي بدء حساسية متعاظمة ازاء المطالبة بالديموقراطية... فلا يصمت ديبلوماسيوهم ولا يصابون بالوجوم عند اعلان سقوط تشاوشيسكو بل يسبقون زملاءهم الاوروبيين بالتصفيق والتهليل. حينذاك، فقط حينذاك، يصبح حوارهم مع اوروبا ومع دول الشمال كلها، ممكناً.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى